علاقة النظم بالنحو عند عبد القاهر الجرجاني .

الدكتور محمد بن صالح – جامعة المسيلة – الجزائر

الملخص :

ليس النحو عند عبد القاهر الجرجاني ذلك العلم الذي يبحث في ضبط أواخر الكلمات ، و لا هو جملة المصطلحات و القواعد الجافة ، و إنما النحو هو المقياس الذي يستقيم الكلام به ، و الذي عن طريقه يُكْشَفُ النقابُ عن الدلالات الخفية و المعاني التي ندركها من علاقات الكلام بعضه ببعض ، و من ارتباطات الألفاظ بعضها ببعض أيضا...

و هكذا فإن مهمة النحو لا تقتصر على صحة التراكيب من الناحية الإعرابية ، بل تتعدى إلى مراعاة المعنى ، لأن معاني النحو منقسمة بين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها، وبين تأليف الكلام بالتقديم و التأخير، وتوخي الصواب وتجنب الخطأ و من هنا استطاع الجرجاني أن يعطينا تصورا جديدا للنحو يرتبط بعلم البلاغة ، فهو نوع من الفن الإبداعي .

تمهيد :

إن فكرة النظم فكرة واسعة ، ارتبطت بشتى العلوم الأدبية من أدب و نقد وبلاغة ونحو ، فقد ساعدت هذه الفكرة على التقاء فلسفة الفن بفلسفة اللغة. وربطت البلاغة بالنحو فجاءت فكرة النحو البلاغي أو البلاغة النحوية .

النّظم عند عبد القاهر الجرجانيّ :

أفاد الإمام عبد القاهر الجرجاني كثيرا مما كتبه علماء النحو واللغة و الأدب و النقد و البلاغة في تكوين وبناء فكرة النظم ، إذ تدور فكرة النظم لديه حول

العلاقة بين الألفاظ والمعاني داخل إطار العبارات، وسمى هذه العلاقات النظم ، وهو ليس سوى تعليق الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسببٍ من بعض . والكلم ثلاث : اسمٌ ، وفعلٌ ، وحرفٌ ، وللتعلّق فيما بينها طرقٌ معلومةٌ ، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام : تعلّق اسمٍ باسم ، وتعلّق اسمٍ بفعل ، وتعلّق حرفٍ بهما . والكلام لا يكون من جزءٍ واحدٍ ، و لتحقّقه لا بدّ من وجود مسندٍ ومسندٍ إليه .

وليس النّظم عند عبد القاهر الجرجاني ذلك الذي معناه ضمّ الشيء إلى الشيء كيفما جاء واتفق، كنظم الكلم الذي تقتفي فيه آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، بل يجب أن تنساق دلالاتها وتتلاقى معانيها على الوجه الذي يقتضيه العقل، حتى يعلق ببعض ويبني بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك، فإذا فعلت هذا كلّه تكون قد استكملت فكرة النظم من وجهة نظره[1]

وأهم النقاط التي تتكون منها نظرية النظم كما جاءت في كتاب دلائل الإعجاز ما يلي :

1- المعاني وعاؤها الألفاظُ ، ووظيفة الألفاظُ خدمة المعاني .

2- العقلُ هو الذي يحكم التقاء معاني الكلمات ، فتنتظم وفقًا لما يقتضيه .

3- لا بدّ في النظم أن تُتَوخى معاني النحو ، إذ يجب أن يوضع الكلامُ الوضعَ الذي يقتضيه علم النحو .

4- لا نظمَ ولا ترتيبَ للكلِمِ حتى يتعلق بعضها ببعض ، والتعلق هو الأساليبُ والأدواتُ النحوية .

5- ليس المقصودُ بالنظمِ ضم الشيء إلى الشيء كيفما اتفق ، بل لا بُد فيه من تتبعِ آثار المعاني واعتبار الأجزاء مع بعضها.

([1]) الإمام عبد القاهر الجرجاني ، حياته ومصادر ثقافته :د. نصر الدين إبراهيم أحمد حسين ، دار الفتح ، ط1 ، المنصورة ، 1993 م ، ص : 26 .

النحو عند عبد القاهر الجرجاني :

عبد القاهر الجرجاني من العلماء الذين حازوا مكانة متقدمة بين النحويين واللغويين إلى جانب شهرته في مجالي البلاغة وعلوم القرآن ، فقد كان من أئمة النحو ، و هذا ما تؤكده كتب التراجم [2] و أعماله المتنوعة في مجال النحو كالعوامل المائة ، و الجمل ، و التلخيص و العمدة في التصريف .

وبالإضافة إلى أنه كان تلميذًا لأبي علي الفارسي وأبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني ، فقد أفاد الجرجاني من جهود سابقيه في هذا الميدان أمثال : سيبويه الذي تحدّث عن باب المسند والمسند إليه ، وباب الإخبار عن النكرة والاستفهام ، وأشار إلى بعض فنون البيان كالتّشبيه والمجاز [3] .

كما أفاد من مناظرات متّى بن يونس وأبي سعيد السّيرافي وغيرهما ، واستطاع بتمثّله وإحاطته واعتماده على آراء سابقيه أن يبين أن مهمة النحو لا تقتصر على صحة التركيب من الناحية الإعرابية و أن النحو من شأنه مراعاة المعاني قبل مراعاة الألفاظ و ذلك لأن معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ و سكناته ،و بين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها ، و بين تأليف الكلام بالتقديم و التأخير و توخي الصواب في ذلك و تجنب الخطأ في ذلك [4] .

و هكذا استطاع عبد القاهر الجرجاني أن يعطي للغة مفهومها الواسع وأن يجعل من النحو ذلك العلم الذي يبحث ويشرح العلاقات التي تقيمها اللغة بين الأشياء ،

([2]) نزهة الألباء في طبقات الأدباء: ابن الأنباري، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار النهضة مصر للطباعة والنشر ، 1967 م ، ص : 363 .

([3]) الكتاب : سيبويه ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ، 1316 هـ ، 71/1

([4]) معجم الأدباء : ياقوت الحموي ، مكتبة البابي الحلبي و شركاه ، مصر ، 190/2 .

إن لم يكن النحو نفسه هذه العلاقات. ولذا كان تصوّره للنحو تصوّرًا جديدًا ارتبط بعلم البلاغة [5] .

ولقد هاجم عبد القاهر الجرجاني المفهوم الخاطئ لعلم النحو عند معاصريه وسابقيه وهو تتبع الأحوال المختلفة للفظ من رفع ونصب وجر دون النظر إلى أسرار التراكيب ودلالاتها التي أضحت غامضة عليهم لا يستطيعون الكشف عنها [6]

كما هاجم أولئك الذين زهدوا في النحو و قللوا من شأنه فبين لهم خطر النحو و مكانته المهمة فقال :(و أما زهدُهم في النحو ، و احتقارُهم له ، و إصغارُهم أمرَه و تهاوُنُهم به : فصنيعهم في ذلك أشنعُ من صنيعهم في الذي تقدم ، و أشبهُ بأن يكون صدا عن كتاب الله ، و عن معرفة معانيه ، ذلك لأنهم لا يجدون بدا من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه . إذْ كان قد عُلم أن الألفاظ مغلقةٌ على معانيها ، حتى يكونَ الإعرابُ هو الذي يفتحها ، و أن الأغراض كامنة فيها ، حتى يكون هو المستخرجَ لها ، و أنه المعيارُ الذي لا يَتَبَينُ نقصانُ كلام و رجحانه ، حتى يُعْرَضَ عليه ، و المقياسُ الذي يعرف صحيحٌ من سقيمٍ حتى يرجع إليه ، و لا يُنكِرُ ذلك إلا من يُنكِرُ حسه ، و إلا من غالط في الحقائق نفسَهُ .

وإذا كان الأمر كذلك ، فليت شعري ، ما عذر من تهاون به و زهد فيه ، ولم ير أن يستسْقِيَهُ من مصبه ، ويأخذه من معدِنه ، ورضي لنفسه بالنقص والكمالُ لها معرضٌ ، و آثر الغَبِينَةَ [7] وهو يجد إلى الربح سبيلا ؟) [8] .

([5]) النقد التحليلي عند عبد القاهر الجرجاني: د. أحمد عبد السيد الصاوي، ص: 161-162

([6]) تاريخ علوم البلاغة و التعريف برجالها ، أحمد السيد مصطفى المراغي، ط1، 1950 م ص : 47-48 .

([7]) الغبينة و الغبن : كالشتيمة و الشتم : الإغفال عن الحق في البيع أو الشراء .

ثم يبين الإمام عبد القاهر الجرجاني الاختلاف بين معرفتنا لقواعد اللغة وأصولها وبين الكشف عن المعاني الخفيّة التي تكمن وراء هذه القواعد والأصول لأنه(لا تسهل معرفتنا لكلّ من أحاط بقواعد اللغة ونحوها وصرفها ، وإنّما يسهُلُ لمن يراها رؤيةً عميقةً لا تقف عند حدود المنطق والنحو، فليست اللغة مجرّد مصطلحاتٍ أو قوانين يخضع لها الفكر ، وإنّما هي رموزٌ تتجسّد فيها حالة المتكلّم الباطنة بكلّ ما فيها من إحساسٍ وشعورٍ وفنّ، و لو صحّ كون اللغة مجرّد علاماتٍ اصطلاحيةٍ لوقفت عند حدود نقل الفكر وحدها، ولما كان هناك داع لأن تعرض المزية في الكلام ويفضل بعضًا على أساس تدرجّه في سلّم القيم، ولكان ما أتى به القرآن في مقدور البشر ما دام الأمر لا يتعدّى مجرّد الفكر وحده) [9]

بين النظم و النحو عند عبد القاهر الجرجانيّ:

تجاوز النظم لدى الجرجاني حدود الاصطلاح الذي كان سائدًا منذ القرن الثاني الهجري في بيئة النحاة على وجه الخصوص ليغدو عملاً منهجيًّا مدروسًا ومنظّمًا يتوخّى دراسة البلاغة في ضوءٍ جديدٍ يقوم على دعامةٍ من النحو وأحكامه ، بل و يسعى أيضًا إلى توسيع أفق النحو و تطويع أدواته. ومن أكثر المباحث التي تناولها الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز: معاني النحو والتقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، والفصل والوصل، والحذف والذكر..

1– معاني النحو :

ينظر لسان العرب : ابن منظور مادة (غبن) دار صادر , بيروت , 1956 م .

([8]) دلائل الإعجاز في علم المعاني:الإمام عبد القاهر الجرجاني، تح :د. ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، 1422هـ - 2002 م ، ص : 86-87 .

([9]) النقد التحليلي عند عبد القاهر الجرجاني : د. أحمد عبد السيد الصاوي ، ص : 163 .

إن عبد القاهر الجرجاني حين تناول نظرية النظم لم يكن يهـــدف إلى إعادة الأفكار التي تناولها سابقوه من أمثال الخليـــل وسيبويـــه ، ولكنه جاء بمنهج جديد يعتمد على ربط النحو بالبلاغة فقال : (و اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، و تعمل على قوانينـــه ، و أصـــوله ، وتعـــرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك ، فلا تخل بشيء منها) [10]. فلا يمكن فصل النحو عن البلاغة لأنهما يلتقيان في نظم الكلم و ضم بعضه إلى بعض ، كما لا يمكن دراسة بلاغة الكلام دون دراسة النحـــو لأنـــه الأساس في العلاقات التي تحكم النظم ، ففساد التركيب ناشئ عن عدم توخي معاني النحـــو و أحكامه بين الكلمات .

وكمثال على ذلك قدم لنا عبد القاهر نموذجا من مطلع سورة الفاتحة : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [11] (جعل الحمد أولا للابتداء به ، و جعل الله ثانيا للإخبار به ، أما رب فجعلها ثالثا كي يوصف بها الله سبحانه و تعالى) [12]

ومن هنا فإن عبد القاهر لا يفسّر معاني النحو بأنها إعراب الكلمات، أو حركات الإعراب، وإنما المراد بها المعنى الذي يفهم من الكلمات، فيحتّم هذا الفهم، أن يكون (الحمد) مبتدأً، و (لله) خبرا، و (رب) صفة.

فالنحو عند عبد القاهر هو الذي يفتح الألفاظ المغلقة على معانيها ، وهو المعيار الذي يعرف به فضل كلام على كلام ، وهو ليس قواعد شكلية وقوالب جامدة بحتة ، وليس مجرد تقدير إعراب أو بيان صحة الكلام ، أو خطئه .

([10]) دلائل الإعجاز في علم المعاني : عبد القاهر الجرجاني ، ص : 127 .

([11]) سورة الفاتحة : الآية 2 .

([12]) التفكير النقدي عند العرب : عيسى علي العاكوب ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، ط 1 ، (د.ت) ، ص: 307 .

وبهذا يكون عبد القاهر أول عالم أخضع النحو لفكرة النظم ، وأخضع فكرة النظم إلى النحو ، وذلك هو الإعجاز الذي أذاب فيه الرجل عصارة أيامه ولياليه [13] .

2– التعريف والتنكير :

اهتم النحاة العرب كثيرا بهذه الظاهرة اللغوية في مصنفاتهم ، إذ نجد هذا الباب حاضرا في كل دراساتهم تقريبا ، وذلك لحاجة الأبواب النحوية المختلفة إليه وقد أقرّ بعض النحاة بتشعب هذه الظاهرة وتداخلها . يقول السيوطي : (لما كان كثيرا من الأحكام الآتية تبنى على التعريف والتنكير ، وكانا كثيري الدور في أبواب العربية صدر النحاة كتب النحو بذكرهما بعد الإعراب و البناء ، وقد أكثر الناس في حدودها وليس منها حد سالم) [14] .

ولقد أفرد الجرجاني لهذه الظاهرة جانبا من دراسته في كتابه دلائل الإعجاز ، فرق فيه بين التعريف والتنكير إذا وقع في التركيب بقوله : (ومما ينظر إلى مثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ﴾ [15] . إذا أنت راجعت نفسك و أذكيت حسّك ، وجدت لهذا التنكير ، و أن قيل (على حياة) و لم يقل (على الحياة) حسنا وروعة ولطف موقع لا يُقَادَرُ قدرُه ، وتجدك تعدم ذلك مع التعريف ، وتخرج عن الأريحية والأنس إلى خلافهما ، والسبب في ذلك أن المعنى على الازدياد من الحياة ، لا الحياة من أصلها ، و ذلك لا يحرص

([13]) قضايا التراث العربي دراسة نصية : فتحي عامر، دار المعارف ، القاهرة (د.ط)(د.ت) ص : 126.

([14]) همع الهوامع، شرح جمع الجوامع في علم العربية: جلال الدين السيوطي، تح: محمد بدر الدين

النعساني ، دار المعرفة للطباعة و النشر ، بيروت ، لبنان ، (دط) ، (دت) ، 54/1 .

([15]) سورة البقرة : من الآية 96 .

عليه إلا الحي ، فأما العادم للحياة فلا يصحّ منه الحرص على الحياة و لا غيرها ، وإذا كان كذلك صار كأنه قيل: ولتجدنهم أحرص الناس و لو عاشوا ما عاشوا على أن يزدادوا إلى حياتهم في ماضي الوقت وراهنه، حياة في الذي يستقبل) [16]

ثالثا : التقديم و التأخير :

التـــقديم : هو خلاف التأخير و أصل في بعض العوامل و المعمولات ، ويكون طارئا في بعضها الآخر) [17] وأما التأخير : فهو مصدر للفعل أخّر ، وهو خلاف التقديم ، وفي الاستعمال النحوي حالة من التغير تطرأ على جزء من أجزاء الجملة ، وتوجب وضعه في موضع لم يكن له في الأصل[18] .

وموضوع التقديم والتأخير من المسائل التي لفتت انتباه اللغويين العرب كونه ظاهرة لغوية تمتاز بها العربية عن كثير من اللغات ، فمن سنن العرب ، تقديم الكلام ، وهو في المعنى مؤخر ، وتأخيره وهو في المعنى مقدّم ، وهو أسلوب من أساليب صياغة الكلام [19] .

ونال هذا الباب حيزًا هامًّا في مباحث عبد القاهر الجرجاني ، إذ وقف عنـــده طويلا في كتابه دلائل الإعجاز فوصفـــه بأنه (باب كثير الفوائد ، جمّ المحاسن ، واسع التصرّف ، بعيد الغاية ، لا يزال يفتر لك عن بديعة ، ويفضي بك إلى لطيفه، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه ،

([16]) دلائل الإعجاز في علم المعاني : عبد القاهر الجرجاني ، ص : 290 .

([17]) معجم المصطلحات النحوية والصرفية: محمد سمير اللبدي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، لبنان (دط) ، (دت) ، ص:183.

([18]) المرجـــع نفســـه ، ص: 09 .

([19]) بلاغة التقديم والتأخير في القران الكريم : علي أبو القاسم غول ، دار الفكر الإسلامي ، ط1 (د.ت) ، ص:192 .

ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ، ولطف عندك أن قُدّم فيه شيء و حُوّل اللفظ عن مكان إلى مكان) [20] .

فلكل كلمة في الجملة ترتيبها الخاص ، و هذا حسب ما يقتضيه الوضع اللغوي ، فالفعل يسبق الفاعل ، و لمبتدأ مقدم على الخبر وهو الأصل في ترتيب الجمل ، فلا ينبغي تغيير الكلمات عن مواضعها احتراما لهذه الأصول ، غير أنه قد يعرض من المزايا و المقتضيات ما يدعو إلى نقل بعض الكلمات في الجمل عن موضعها ، فتقدم كلمة أو تؤخر لأسباب بلاغية [21] .

خاتمـــــة :

اعتبر الجرجاني النحو والبلاغة أمران متلازمان لا انفصال بينهما ، معتبرًا الأوّل مكوّنًا أساسيّا في تفكير المبدع وعقله متى قال أو خط كلاما ، موسّعًا بذلك مفهوم علم النحو الذي كان يقتصر– حتى وضعه نظريّةَ النّظم – على درس أواخر الكلم وكيفية ضبطها احتكامًا للمعياري من القواعد ، مضمنًا إيّاه ما يُسمّى اليوم بـــ (علم المعاني) و (علم الدّلالة) ، فحرّره بذلك من قيود المصطلحات و القواعد والقوانين الجافة ، وكان لديه وظيفة فنيّة وبلاغيّة ، إذ به وحده يتم الكشف عن الخفيّ من معاني الكلام .

([20]) دلائل الإعجاز في علم المعاني : عبد القاهر الجرجاني ، ص : 148 .

([21]) المعاني في ضوء أساليب القران الكريم : عبد الفتاح لاشين ، دار الفكر العربي ، القاهرة ط4 ، 1999 م ، ص : 158 .

وقد عمد الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز إلى دراسة وتحليل بلاغة وفصاحة الشعر العربي والنص القرآني دراسةً تطبيقيّةً ، معتمدًا في ذلك على أدوات نحوية وصرفية خالصة ، حتى أنه يشير في أكثر من موضع إلى أن المجاز مثل الاستعارة وغيرها ، ما هي إلا صناعةٌ نحوية لأنها من مقتضيات النظم .

والنظم عند الجرجاني هو وضع الكلام الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، والعمل على قوانينه وأصوله، والنحو الذي يريد هو ذلك المعالج لصور معاني الكلام وكيفيّة خلقها باعتماد الأصول النحوية، لا الرّامي إلى إطلاق أحكام صحّة أو فساد على الكلام ، أو لمعالجة اللحن وضبط اللغة .

والجرجاني لا يخرج على المعيارية النحوية رافضًا أو متمرّدًا أو لاغيًا ، كما فعل ابن مضاء أو غيره ، و إنما نجده مضيفًا وموسّعًا وميسّرًا وآتيًا بجديد ، مستفيدًا وموظّفًا ما حازه من علوم السّابقين له ، لغةً ونحوًا وصرفًا وبيانا ، فهو لا ينكر العامل أو العلّة مثلاً ، و لم يحاول وضع أصول جديدة للنّحو ، بل نجده يدافع عن النحو ويبيّن خطورته وينتقد الاستخفاف به والزّهد فيه لدى أبناء عصره .

وما قد يؤخذ على الجرجاني أنّ شرحه لأفكاره حول الدّلالة أو البلاغة النحوية لم يكن مفصلا، مع أنه ساق أمثلة وشواهد كثيرة محاولاً تطبيق نظريته عليها ، فإشاراته كانت مختصرة وسريعةً الأمر الذي قد يفوّت على كثيرين التنبه إلى أهميّة ما أضافه الرجل إلى علم النحو عبر توخّيه لمعانيه ، وهي إضافات يمكن أن تسهم كثيرًا في تطوير الدرس اللساني الحديث وتوضيحه وتوسيع آفاقه.

*** المصادر و المراجع :**

– القرآن الكريم

1 – الإمام عبد القاهر الجرجاني ، حياته ومصادر ثقافته : د. نصر الدين إبراهيم أحمد حسين ، دار الفتح ، ط1 ، المنصورة ، 1993 م .

2 – تاريخ علوم البلاغة و التعريف برجالها ، أحمد السيد مصطفى المراغي ، ط1 ، 1950 م .

3 – التفكير النقدي عند العرب: عيسى علي العاكوب، دار الفكر، دمشق، سوريا،ط 1 (د.ت)

4 – دلائل الإعجاز في علم المعاني: الإمام عبد القاهر الجرجاني، تح:د . ياسين الأيوبي ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، 1422هـ – 2002 م .

5 – قضايا التراث العربي دراسة نصية : فتحي عامر، دار المعارف،القاهرة (د.ط) (د.ت) .

6 – الكتاب : سيبويه ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ، 1316 هـ ، 71/1 .

7 – لسان العرب : ابن منظور ، دار صادر , بيروت , 1956 م .

8 – معجم الأدباء : ياقوت الحموي ، مكتبة البابي الحلبي و شركاه ، مصر .

9 – نزهة الألباء في طبقات الأدباء: ابن الأنباري، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار النهضة، مصر للطّباعة والنشر ، 1967 م .

10– النقد التحليلي عند عبد القاهر الجرجاني:د. أحمد عبد السيد الصاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية ، مصر ، 1979 م .

11– همع الهوامع ، شرح جمع الجوامع في علم العربية: جلال الدين السيوطي، تح: محمد بدر الدين النعساني ، دار المعرفة للطباعة و النشر ، بيروت ، لبنان ، (دط) ، (دت).